سفينة المعارف

في يد « الربان علي أيوب »

للأستاذ عبد الله حبيب

كيف قاد الربان سفينة المعارف ؟ وكيف اجتاز بها مصاعب الأمواج الهوج ، في مصادم البحر ، بين الرياح الزمن ، والمهاوي السحيقة ؟ ؟

الربان مقضي عليه أن يجهد جهده ، فيحسب حساب المد والهواء ، بين أفاعيل الماء والسماء ، ليهتدي في تاريج تلك المهاوي بين الضباب والأمواج ، إلى ما يبني من سبيل مأمون العواقب ، محقق الثمرات .

وقد جهد وزير المعارف جهده ، فحسب حساب المد والهواء ، فكر ، ودبر ، وأنعم النظر فيما كان ، وما يجب أن يكون . واستطاع — في فترة وجيزة — أن يقود سفينة العلم والأدب بيد ربان حكيم حصيف . وهو الوزير الذي لم يتدرج — قبل أن يلي الوزارة — في مراحل الوظائف الحكومية ، ولم يعرف من « صناعة الحكم » أو أساليب الحكام ، ما عرف غيره من الوزراء الذين لابسوا شئون الوظائف في مراحلها العديدة ... وأثبت أن الحكم ليس « صناعة » تستوجب المران والتمرس ، ولكنها تستوجب العقل الراجح والوعي الشامل والأفق الفكري المتراحب الأنحاء .

وقد أقبل على وزارة المعارف مفترضاً أن شئون التعليم وشئون رجال العلم والأدب « قضايا » يجب أن تدرس بعقل المدره المستنير ، ليفصل لكل قضية من تلك القضايا واجباً في عنقه . وراح يقرأ ويقرأ مئات من الأضابير في مئات المسائل ، وما زال حتى وضحت أمامه المعالم ، واستوى الطريق ، فأخذ يقضي في تلك القضايا — واحدة إثر أخرى — بأحكام قاض عادل متزن . وحالف التوفيق تلك الأحكام ، فجاءت موضع الإعجاب والتقدير .

وكانت « قضية الأدباء » أول قضية استهل بها عهد أحكامه العادلة ، يوم نظر إليها نظرة وطنية شاملة فرد إلى طائفة منهم حقوقاً كانت ضائعة ، وجعل يبحث ويبحث عن حقوق بقية الأدباء ليردها إليهم ، ويدفع الظلم عنهم ، بقلب وطني شجاع ، لا يخشى فيما يراه حقاً لوم اللائمين وتعنت المتزمتين ، ويقول في ذلك : إن العلم والأدب لا وطن لهما ، ولا حزبية فيهما ، وإنه أراد بما فعل أن يوحد الجهود في سبيل العلم والأدب ؛ راجياً أن يكون عمله هذا فاتحة خير لتوحيد الجهود في سبيل قضية الوطن .

وقد أعلى بذلك شأن الأدب — في عهد الفاروق — أعلى الله شأنه ، وأكرم الأدباء أكرم الله صنيعه ، ولقي في سبيل إنصافهم ما لقي من عنت ولوم واحتجاج ، فكان جزاؤه ما لهجت به الألسنة من الثناء عليه ، والدعاء له ، ورضاء الأمة عن عمله ، وعرفانها لجميله .

ونفى عن الأدباء — بما فعل — تهمة التعطل والتبطل والميل إلى الكسل وتلمس الرزق من أيسر طريق . فأظهر الناس على أن الأدباء « كفايات » مذخورة للوطن ، يجب أن يعلوبها الوطن ، وأن الأمة التي تطمس حق أدبائها ، وتأخذهم بجريرة الحزبية البغيضة ، لا خير فيها ولا أمل يرجى في صلاحها .

أما بقية القضايا فهي في طريقها إلى النور ، وسوف تظهر أحكامها السديدة الرشيدة لكل ذي عين وبصيرة ، ناطقة بما وهب الله قاضيها من سداد ورشاد وبصر وإيمان .

وأما السفينة بما فيها ومن فيها ، فهي في طريقها إلى شاطىء السلام وبر الاطمئنان ، يقودها ذلكم « الربان » الذي عرف من أفاعيل الماء والهواء ، والرياح الرعناء ، ما لم يعرفه ربان قديم .

ولم يبق أمام هذا الربان القدير سوى بعض صخور وبعض أعشاب تنساب فيها الأفاعي والحيات . ومن يدري ؟ فلعله « رفاعي » يروض الأفاعي والحيات ، ويعرف كيف يخدرها بتعاويذه وأدعيته ، ثم يستلها من بين تلك الأعشاب ، فيكسر أنيابها ويقي الناس من سمومها ، ويصل بالسفينة إلى شاطىء السلام ، بعد القضاء على الصخور والأعشاب .

وسيعرف الناس — بعد ذلك — أي جهد بذل هذا الوزير العادل ، وأي مجد بنى لأمته في محيط العلم والأدب .

أما أدباء مصر ، فقد أصبح في أعناقهم لهذا الوزير المنصف العادل دين أي دين ، وكذلك علقت بنفوسهم أكبر الآمال في عدله وبره ورعايته وتعميم فضله وتقديره لأهل العلم والأدب .

عبد الله حبيب